«زهرة الحرّ، شاعرة جبل عامل»، لخديجة شهاب
رائدة الأدب النِّسائي العاملي

يا مجلساً جعل الثقافة مذهباً وأطلَّ من أفق الحضارة كوكبا
إنَّ الجنوب بعدِّه وعديده أضحى لغايتك النَّبيلة موكبا..

هذان بيتان من قصيدة تحيِّي بها زهرة الحر المجلس الثقافي للبنان الجنوبي. والمجلس، إذ يجعل الثقافة مذهباً والجنوب غاية، يحتفي في هذه الندوة في سياق برنامجه المعتاد، بكتاب يبحث في حياة هذه الشاعرة وشعرها، وهي الشاعرة التي وصفها الشاعر فضل الأمين، ذات يوم، بـ «ملكة تتربَّع على عرش الشعر في جبل عامل».

«زهرة الحر، شاعرة جبل عامل» كتاب جديد لخديجة شهاب، تبحث فيه ثلاث قضايا: أولاها تسمية جبل عامل وحدوده وسكانه وأوضاعه السياسيَّة والاجتماعيَّة والفكريَّة، وثانيتها حياة زهرة الحر وثقافتها، وثالثتها موضوعاتها الشعريَّة وأسلوبها.

موضوعات البحث وأهدافه

تقول المؤلِّفة في تسويغ اختيارها للشاعرة الحر موضوعاً لبحثها: «إنَّني أقدِّر الأدب النِّسائي العاملي، وأرغب في أن أضيء على نتاج إحدى رائدات هذا الحقل» (ص. ٩، وراجع ص. ١٧). يفيد هذا القول، علاوة على تحديد الدافع الذاتي، أنَّ الهدف من البحث هو الإضاءة على نتاج إحدى رائدات الشعر العاملي النِّسوي، غير أنَّها كانت قد قالت قبل ذلك: «وقد أردت الاطِّلاع عن كثب على التطوُّرات التي أصابت الشِّعر العربيَّ في الصميم، فتوجَّهت إلى

حيث أجد كنوز الشِّعر الدَّفين، لعلِّي أستطيع من خلال دراستي له ان أمنحه التجدُّد، وأعيد إليه ألقه، وألفت النظر إلى بعض الشُّعراء الذين نستيهم الحياة، فطوتهم في أرض جبل عامل» (ص. ٨).

يفيد هذا القول: إنَّ الهدف من البحث أكثر شمولاً وعمقاً وتشعُّباً، إذ شمل عدَّة قضايا، أولاها الإطلاع عن كثب على تطوُّر الشعر العربي في الصميم، وثانيتها دراسة كنوز الشِّعر الدفين، وثالثتها منح هذا الشِّعر التجدُّد والألق، ورابعتها لفت النَّظر إلى بعض الشُّعراء المنسيِّين.

هذا الهدف، كما يبدو، كبير جدَّاً، وليس من بحث لقضاياه في الكتاب، ولا تفوتنا ملاحظة الفرق الكبير بين القضايا الثلاث الأولى لهذا الهدف والمآل الذي تصير إليه في القضيَّة الرابعة، وهو لفت النظر.

ثمَّ نقرأ ما يفيد أنَّ الهدف من بحث هذا الموضوع هو إعطاء صورة واضحة عن الشَّاعرة، وعن مجتمعها وبيئتها وشعرها النَّابض بالحياة، الذي استحقَّت من أجله لقبها: شاعرة جبل عامل.

ثمَّ نقرأ ما يفيد أنَّها تريد أن تقف، بعد الكلام على البيئة السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والفكريَّة، التي عاشت فيها الشَّاعرة، عند باب الشِّعر، لتجيب عن السُّؤال الآتي: «هل أجادت الشَّاعرة، كما أجاد الشُّعراء الرومنطيقيون؟ وهل تماشت والمواضيع التي نسجوا فيها شعرهم؟ وأين تفرَّدت عنهم؟» (ص. ٤١ و٤٢).

هذا موضوع آخر يفترض أنَّ الشُّعراء الرومنسيِّين أجادوا، كما يفترض أنَّ زهرة الحر شاعرة رومنسيَّة، ولا يخفى أنَّ هذين الافتراضين إسقاط مسبق يؤدِّي إلى اتِّباع منهج انتقائي، ينتقي الأبيات من القصائد، ويستشهد بها ليثبت صحَّة ما تمَّ افتراضه وإسقاطه، والمنهج الصحيح هو المنهج النصِّي الذي ينطلق من النَّص بوصفه وحدة كاملة، كما يقتضي بحث هذا الموضوع أن تجري مقارنة بين الشَّاعرة وبين الشُّعراء الرومنسيِّين بغية معرفة ما إذا كانت قد أجادت مثلهم، وما إذا كانت قد تفرَّدت عنهم وتميَّزت منهم؟

هذا موضوع كبير جدًّاً، يحتاج معرفةً شاملةً بالشعراء الرومنسيِّين وشعرهم، ما يفضي إلى اختيار نماذج منهم للمقارنة، كما يقتضي، من نحوٍ أوَّل، دراسة شعرهم وتبيُّن خصائصه، ومن نحوٍ ثانٍ دراسة شعر زهرة الحر وتبيُّن خصائصه، ومن نحوٍ ثالث المقارنة بين ما يتمُّ تبيُّنه من خصائص، بغية معرفة التميُّز والتفرُّد...

ثمَّ تقول المؤلِّفة: إنَّ الشَّاعرة تتابع، في ديوانها: «الله جلَّ جلاله»، المنحى الصُّوفي الذي اتَّصف به شعرها منذ بداية نظمها، وتضيف المؤلِّفة، فتقول: إنَّها ستبحث في تأثير صخب الحياة في شعر الشَّاعرة وتبيِّن «إلى أيِّ أحدٍّ وُفِّقت في معالجة المواضيع التي تناولتها» (ص. ٦٥).

وهذا موضوع آخر يضاف إلى ما سبق، وهو موضوع جدير بالبحث وعميق، ويجيب عن أسئلة مهمَّة، منها ما يتعلَّق بالمنحى الصُّوفي وخصائصه وعلاقته بصخب الحياة من ناحية أولى وبالرومانسيَّة من ناحية ثانية، ما يتيح تبيُّن تفرُّد الشَّاعرة بهذا المنحى الصُّوفي الديني، وتميُّزها به من الرومنسيِّين.

وهكذا، كما يبدو، تضع المؤلِّفة أمامها أهدافاً كثيرة تريد لهذا البحث أن يحقِّقها، وهي أهداف تشمل معرفة تطوُّر الشِّعر العربي ودراسة كنوز الشِّعر الدَّفين...، والإضاءة على نتاج شعري، أو لفت النَّظر إلى شعراء منسيِّين. وإن عدنا إلى الكتاب وجدنا أنَّ ما تمَّ بحثه فعلاً هو القضايا الثلاث التي ذكرناها في بداية هذه المقالة، وهي: جبل عامل، حياة الشَّاعرة، موضوعات شعرها وأسلوبها.

المنهج

وإذ تتحدَّث عن المنهج الذي تعتمده لتحصِّل معرفة بهذه القضايا، تقول: إنَّها اعتمدت المنهج الموضوعاتي، وبناءً على هذا المنهج، وضعت مخطَّطاً يبحث في القضايا التي ذكرناها آنفاً.

الحقيقة أنَّ المنهج الموضوعاتي وحده لا يفي بالحاجة إن أرادت المؤلِّفة

بحث الأهداف الكثيرة التي حدَّدتها، والتي ذكرناها آنفاً، ثمَّ إنَّ اتخاذه أساساً للبحث يقتضي وضع مخطَّط مختلف كليَّاً عن المخطَّط الذي وضع واعتمد في البحث، ذلك أنَّ هذا المنهج لا يُعتمد في بحث حدود جبل عامل وتسميته وسكانه وأوضاعه، وحياة الشَّاعرة وبيئتها وموضوعات شعرها وأسلوبها...، إنَّه يعتمد في بحث قضايا أخرى...

إنِّي، وإن كنت أريد ألَّا أثقل عليكم في الكلام على قضيَّة جامعيَّة، سأتحدَّث باختصار وتبسيط عن هذا المنهج، كما تحدَّثت عن تحديد موضوع البحث، لسببين: أوَّلهما أنَّ الكتاب في الأصل رسالة جامعيَّة، وثانيهما استخدام النتائج لمناقشة قضيَّة أخرى مهمَّة، وهي معرفة الموضوع ـ الجذر في شعر زهرة الحر.

المنهج الموضوعاتي منهج معاصر، رائده الناقد الفرنسي جان بيير ريشار، يدرس النَّص نفسه، بوصفه وحدة لغويَّة كليَّة، تنتظم فيها العناصر في نظام من العلاقات الداخليَّة. يستبعد هذا المنهج ما يحيط بالنَّص من عوامل خارجيَّة، ويهدف إلى العثور على المبدأ Le principe الذي يوحِّده، وليس إلى وصف مضمونه الفكري.

والمقصود بالمبدأ الجذر، أو الجوهر، الذي تتفرَّع منه موضوعات تعاود نفسها، وتتَّخذ مظاهر كثيرة، وتتطوَّر على امتداد العمل الأدبي الواحد، أو على امتداد الأعمال الأدبيَّة للأديب الواحد، أو لأدباء مرحلة تاريخيَّة معيَّنة...

تقتضي معرفة المبدأ ـ الجذر ـ الجوهر إجراءات منهجيَّة كثيرة، منها بناء معجم للتواتر المعنوي واللفظي وسوى ذلك، وفي الغالب لا نجد الموضوع ـ الجذر ـ الجوهر إلَّا لدى الشعراء الكبار المتميِّزين، وليس لدى الشعراء الذين يقلِّدون ويلمُّون رؤيتهم من هنا وهناك. ومن نماذج الموضوع ـ الجذر ـ الجوهر، في الشِّعر العربي، مقاومة الفناء والسعي إلى البقاء والانتصار في الشِّعر الجاهلي، وهو المبدأ الذي تتمثَّل فيه وحدة القصيدة الجاهليَّة التي تبدو في الظاهر مفكَّكة.

الموضوع الجذر في شعر الشَّاعرة

الواضح أنَّ المؤلِّفة لم تقم بناء كتابها على أساس النَّقد الموضوعاتي، كما أنَّها لم تعتمد هذا المنهج لدى دراسة موضوعات الشِّعر، فلو فعلت لعلمت أنَّ «الجذر»، في شعر الشَّاعرة زهرة الحر، هو ديني، وفي ما يأتي أقدِّم نماذج من ظهور هذا الجذر في شعر الشَّاعرة، وتواتر/معاودة ما يدلُّ عليه:

الإنسان خلق من تراب، وإلى التُّراب يعود:

أنا بنت التراب، فالأرض أمِّي وأبي، وهي مصدري ومآبي
أنا طين، وسوف أرجع للطيِّـ ـن، ولو كان لي جناح العقاب

* وكان هبوطه إلى الأرض قدراً أراده الله سبحانه وتعالى:

ـ هكذا شاءت الأقدار فينا فليكن ما تشاءُ لا ما نشاء
فاهبطي يا ابنة التراب إلى الأرض ففي الأرض تمرح الأهواء

* في الأرض تمرح أهواء الإنسان، فهو كائن مركَّب من مكوِّنات متناقضة تجعله يبدو كأنَّه لغزٌ/سرٌّ، فهو عبدٌ وحرٌّ، حلو ومرٌّ، حبٌّ وكره، أمل ويأس، تحضُّر ووحشيَّة، وهنا يبرز المنحى الواقعي في هذا الموضوع الجذر:

ـ أنا لغزٌ، يا إلهي، أنا سرٌّ أنا عبدٌ، رغم أنِّي حرُّ
أنا خيرٌ بين أمثالي وشرٌّ أنا حلوٌ، وأنا يا ربُّ مرُّ
فعلى أيِّ صفات أستقرُّ

* تعاف الشَّاعرة نزوع الإنسان إلى الشرِّ، وتكنِّي عنه بالعفن، وتريد أن تتجاوز هذا الواقع، وهنا يدور صراع داخلي:

ـ لكنَّني، يا ربُّ، لم أملك لهذي النفسي أمرا
أعدو بها للخير، وهي تجرُّني للشرِّ جرَّا
وكأنَّها فطرت علي الأمرين إذعاناً وقسرا

ـ أنا عفنٌ، ولكنِّي أعاف حقارة العفن

* تعاف حقارة العفن، وتعدو بالنَّفس إلى عليائها، لتروي ظمأً إلى

الرقي الإنساني، إلى الكمال الإنساني، وهنا يبرز المنحى الصُّوفي في هذا الموضوع الجذر:

ـ أنا ظمأى، ومياه الأرض لا تروي ظمئي
أنا ظمأى، ومياه الأرض تجري ورائي ...

وإذ تحقَّق هدفها، في سفرها، إلى الكمال، تريد لهذا الكمال أن يتحقَّق في شخصيتها وحياتها العمليَّة وشعرها:

ـ أنا زهرة من الرَّوض يبعث عرفها روح محلِّقةٌ وقلبٌ مشرق
أنا ابنة السفح الجميل، وغرسة الوادي الظليل، ونجمة تتألَّق

* لا يكون الفخر، هنا، تبجُّحاً، وإنَّما سموٌّ بالذَّات يرقى بها من التناقض، العفن الذي كانته، سموٌّ محميٌّ لا يطال، ولا ينال منه:

ـ أنا مخلبٌ من مخالب نسرٍ أنا ريشة في جناح العقاب
أنا الشَّمسُ لا تلتقي في الظَّلام ولا تتوارى وراء الضَّباب

وفي موقعها هذا، تتمنَّى أن تملأ الوجود لحناً طروباً، شعراً جميلاً، وأمنيتها هذه تتَّخذ بعداً وطنيَّاً، تدلُّ عليه مفردة «أرزة»، فالعطاء عطاء وطني للعالم.

ـ ليتني أرزةٌ لها ألف غصن كلُّ غصنٍ يقول للشِّعر هيَّا
لملأت الوجود لحناً طروباً خالداً في خواطري عبقريَّا...

الحقيقة أنَّ المؤلِّفة تبيَّنت أصولاً دينيَّة لرؤية الشاعرة، وذكرت ذلك في غير موضع من كتابها، واستشهدت بآيات قرآنيَّة كريمة كان لها حضور في شعر الشَّاعرة، وهذا عائد، كما قلنا آنفاً، إلى كونها انطلقت من حكم مسبق، وهو أنَّ الشَّاعرة رومنسيَّة، وقد أجادت كما أجاد الشُّعراء الرومنسيُّون...

جبل عامل والإتيان بجديد

بذلت المؤلِّفة، كما هو واضح، جهداً كبيراً في بحثها، وكان لافتاً أنَّ هذا الجهد يعود إلى الأعوام، ١٩٩٢ و١٩٩٤ و١٩٩٦ (ص. ٥٣) ففي هذا الأعوام، كما تفيد الحواشي، أجرت مقابلات مع الشاعرة، لكنَّها، في الوقت

نفسه، لم تبذل جهداً يتيح لها الإتيان بجديد لدى الكلام على جبل عامل، وهذا هو شأن معظم الدِّراسات التي تبحث في هذا الموضوع، فهي تعتمد على ما توصَّل إليه الرُّوَّاد أمثال العلَّامة السيِّد محسن الأمين في كتابه: «خطط جبل عامل» وقيصر مصطفى في كتابه: «الشِّعر العاملي الحديث» وسواهما... واللَّافت أنَّ المؤلِّفة لدى ذكرها عدد سكَّان جبل عامل اعتمدت الرقم الذي ذكره قيصر مصطفى، وهو مئة وخمسون ألف نسمة، مكتفية بالإشارة في الهامش إلى أنَّ هذا العدد قد زاد كثيراً (ص. ٢١) منذ زمن إعداد ذلك الكتاب الصادر عام ١٩٨١.

بذلت المؤلِّفة جهداً كبيراً، وتوصَّلت إلى نتائج كثيرة، ما يدلُّ على توافر قدرات باحثة يمكن أن تقدِّم الأفضل إن تخلَّصت من مشكلات تتعلَّق بالمنهج والمنهجيَّة وطرق تحصيل المعرفة وتقديمها والتوثيق، وهي مشكلات اعترضتنا جميعاً لدى إجرائنا أبحاثنا الأولى.

مقام تحيَّة

لا أريد التفصيل في هذا الشأن، وإنَّما أريد أن يكون هذا المقام مقام تحيَّة لكلٍّ من الشاعرة والمؤلِّفة، الشاعرة زهرة الحر التي قال فيها الشاعر خليل شرف الدِّين:

زهـــرةٌ حـــرَّةٌ تـــبـــثُّ شـــذاهـــا مـن عـبـيـر الـتـعـبـيـر نـثـراً وشـعـرا
فـتـراهـا تـبـثُّ فـي الـحـرف سـرَّاً عـبـقـريَّـاً، فـتـجـعـل الـشِّـعـر سـحـرا

(ص. ٢٥٠)

والمؤلِّفة خديجة شهاب التي بحثت عن كنوز الشِّعر الدفين وفيها، وبذلت جهداً كبيراً في ذلك، وتوصَّلت إلى نتائج جديرة بالتقدير وأهدت إنجازها إلى من وهبوا الأرض حياتهم، وتعلَّموا منها الصمود والتحدِّي، فالشَّاعرة والمؤلِّفة هما ابنتا تلك الأرض المعطاء التي يهب أبناؤها حياتهم لها... وإن كان لي من نقدٍ ركَّز على تحديد موضوع البحث وإشكاليَّته ومنهجه، فذلك من أجل تجاوز مشكلات واجهناها وتعلَّمنا حلَّها وما زلنا نتعلَّم...، فإلى مزيدٍ من الإنجاز والتَّعلُّم...